الجزء الثاني المجلد الرابع والثلاثون

# مجلة المجمع العلمي العراقي

جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسان ١٩٨٣ م

# السلوك الطبي للأطباء العرب والمسلمين

**الدكتور محمود الحاج قاسم محمد**
مستشفى الأطفال – الموصل – العراق

الساوك الطبي او الادب الطبي – نعني به هنا ما يجب على الطبيب من التزامات اخلاقية في حياته الاجتماعية والعملية مع مرضاه والتزامات مهنية تجاه زملائه من الأطباء . والا لتزامات الأخلاقية في ممارسة الطب هذه نشأت مع نشأة الطب حيث وضعت لها المجتمعات مع مر العصور قوانين جائرة بحق الطبيب ومنها مقبولة ما زال الطبيب يلتزم بها حتى اليوم .

وبغية اعطاء صورة واضحة المعالم عن دور العرب والمسلمين ، ابان نهضتهم في العصور الوسطى ، في ذلك سوف نتكلم عن خمس مسائل تشكل في مجموعها النظام المتميز للسلوك المهني للاطباء العرب والمسلمين .

## أولاً – المسؤولية الطبية –

عرف المصريون القدماء المسؤولية الطبية ، وسجلوا شروط ممارسة المهنة في كتبهم ، فكان على الطبيب ممارسة مهنته بموجبها ، اما اذا خالفها فكان جزاؤه الاعدام .

اما الآشوريون فكانوا اقل شدة من غيرهم حيث كان على الطبيب اذا اخطأ او لم يستطع علاج مريض ان يطلب العفو من الآلهة على ذلك بينما كان

البابليون اكثر قسوة منهم على الأطباء حيث يتبين ذلك جلياً في بعض بنود قانون حمورابي .

جاء في البند (٢١٨) « اذا عالج الطبيب جرحاً بليغاً اصيب به رجل – بمبضع معدني – وسبب موته ، واذا شق ورماً بمبضع جراحي معدني وعطل عين الرجل ، تقطع يده »

وجاء في البند (٢١٩) « اذا عالج طبيب عبد رجل من عامة الشعب بمبضع جراحي وسبب موته من الجرح ، عليه ان يعطي سيده عبداً بعبد »

وجاء في البند (٢٢٠) « اذا شق الطبيب الورم – بمبضع معدني جراحي وعطل عين المريض ، يدفع نصف قيمة العين فضة »

وعند الاغريق كان الطبيب يسأل جنائياً في احوال الوفاة التي ترجع الى نقص خطأ غير النقص في كفايته . وجاء في القانون الروماني « اذا كان الموت لا يصح ان ينسب الى الطبيب فانه يجب ان يعاقب على الأخطاء التي يرتكبها نتيجة جهله ، وان من يغشون اولئك الذين يكونون معرضين للخطر ، لا يصح ان يخلّوا من المسؤولية ، بحجة ضعف المعارف البشرية » .

اما في اوربا في العصور المظلمة فقد جاء في القانون الكنسي عند الغوط الشرقيين – اذا مات المريض بسبب عدم عناية الطبيب ، او جهله يسلم الطبيب الى اسرة المريض ويترك لها الخيار بين قتله او اتخاذه رقيقاً . والغوط الغربيون يعدّون الأتعاب التي تعطى للطبيب مقابلة الشفاء فان لم يشف المريض ، اعتبروا العقد غير منفذ ، ولا يسأل الطبيب عن وفاة المريض اذا لم يثبت حصول الأخطاء وفي عهد الصليبيين كانت المحاكم في بيت المقدس ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تعتبر الطبيب مسئولاً عن جميع اخطائه وجميع اهمالاته فاذا توفي الرقيق بسبب جهل الطبيب فانه يلتزم بدفع ثمنه لسيده ، ويترك المدينة اما اذا كان المجني عليه حراً وكانت المسألة تتعلق بجرح بسيط

او سوء عناية لم يترتب عليه الموت ، تقطع يد الطبيب ولا تدفع اتعابه اما اذا مات المريض فيشنق الطبيب (١) .

هذه القساوة دعت الأطباء في كثير من الاحيان ، ان يحجموا عن التطبيب او يشترطوا شروط عدم المسؤولية ، كما حصل فيما رواه غليوم دى تيبر .

من ان الملك اموري الأول من ملوك اورشليم (١١٦٢ – ١١٧٣) اصيب بمرض خطير ، ولكن الأطباء من اهل البلد رفضوا ان يعالجوه فلجأ الى الأطباء الأجانب ، فاشترطوا عليه ان يعدهم بعدم ترتيب اي عقاب عليهم في حال عدم نجاحهم (٢) .

ان هذه القصة تشير الى كون العقوبات التي ذكرناها لم تكن مطبقة بشكل دائم وانما كانت الحد الأقصى لمعاقبة الطبيب .

**المسؤولية الطبية في الشريعة الاسلامية – (٣)**

ان المسؤولية الطبية لم تكن معروفة في الشريعة الاسلامية فحسب ، بل كان لها فيها من القواعد الدقيقة ما يجعل تنظيمها في جوهره اقرب مايكون الى احدث ما وصلت اليه ارقى الشرائع المدنية في العصر الحديث ، وها هي بعض النصوص الواردة في هذا الصدد – القاعدة الشرعية – ان كل من يزاول عملاً او علماً لا يعرفه يكون مسؤولاً عن الضرر الذي يصيب الغير نتيجة هذه المزاولة وقد جاء في الحديث « من تطبب ولم يكن بالطب معروفاً فاصاب نفساً فما دونها فهو ضامن » ويختلف الأمر من ناحية المسؤولية المدنية ، بين الطبيب الجاهل والطبيب الحاذق ، فعلماء الشريعة ينفون المسؤولية المدنية عن الطبيب الجاهل ، اذا كان

(١) التونجي – عبدالسلام / المسئولية المدنية للطبيب ص ٤٠ ( دار المعارف – لبنان ١٩٦٧ . )

(٢) المصدر نفسه نقلا عن :

Fazembat « Andre » : Resparsibi Lite Legele desmedecirs traitarts these, paris - 1903 .

(٣) للمزيد من التفصيل يرجع للمصدر نفسه حيث لخصنا الفقرة التالية عنه بتصرف .

الطبيب المريض يعلم انه جاهل لا علم له ، واذن له بعلاجه رغم ذلك .

اما الطبيب الحاذق ، فلا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض ولو مات المريض من جراء العلاج ، ما دام المريض قد اذن له بعلاجه ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج ، بل كان الضرر او الموت نتيجة امر لا يمكن توقعه او تفاديه . وعلى هذا اتفق الفقهاء على ان الموت اذا جاء نتيجة لفعل واجب مع الاحتياط وعدم التقصير ، لا ضمان فيه

ويمكن القول بأن الطبيب تنتفي مسؤوليته في الشريعة الاسلامية للأسباب التالية —

١— اضفاء صفة الوجوب على عمله — لأن التطبب فرض عين غير قابل للسقوط في الأماكن التي ليس فيها طبيب — فهو اذا يقوم بعمله انما يقوم بواجب ملقى عليه ، وله حرية كاملة في اختيار هذا العمل واختيار الطريقة التي يرى فيها صلاحها للمريض .

٢— حسن النية — الطبيب اذ يؤدي عمله ، انما يؤديه بحسن النية هذا هو المفروض والمتطلب منه ، فهو بعمله انما يقصد نفع المريض ، لا ضرره . اما اذا كان سيء النية ، او قصد قتل المريض ، فهو في عمله مسؤول عن فعله جنائياً ومدنياً حتى ولو لم يؤد فعله الى الوفاة او الى احداث عاهة .

٣— اذن المريض — يعتبر اذن المريض موافقة ، وسماحاً للطبيب بأن يأتي الفعل ، والعبرة باذن المريض لا شخصه بالذات بل قد يأذن وليه او وصيه او الحاكم عند عدم وجود الوصي او الولي .

٤— اذن ولي الأمر — المراد هنا باذن ولي الأمر ، هو السماح للطبيب بمباشرة عمله بصفة عامة ، كاذن وزارة الصحة او النقابة في اجازة الطبيب بالعمل ، ذلك ان الشريعة الاسلامية تشترط في الطبيب ، ان يكون على درجة مهنية من الفهم العلمي .

وان يكون على جانب من الكفاءات تؤهله لأن يباشر التطبيب ويرد معيار

الكفاءات الى ولي الأمر .

اذا توفرت هذه الشروط ، فان الطبيب يعفى من المسؤولية ولو الحق الضرر بالمريض ، لطالما انه لم يكن قاصداً إلا الاصلاح والنفع العام له ، اما اذا انعدم شرط من هذه الشروط عد الفاعل مسؤولاً عن عمله ، ووجب عليه التعويض .

مما لا شك فيه ان القوانين الوضعية تتفق مع الشريعة الاسلامية في اعتبار التطبيق عملاً مباحاً ، كما تتفق مع الشريعة التي تمنع المسؤولية فتستلزم ان يكون الفاعل طبيباً ، وان يأتي الفعل بقصد العلاج وبحسن النية ، وان يعمل طبقاً للأصول الفنية ، وأن يأذن له المريض في الفعل . وتعتبر القوانين الوضعية التطبيب حقاً ، بينما تعتبره الشريعة واجباً ، ولا شك ان نظرية الشريعة افضل لأنها تلزم الطبيب بأن يضع مواهبه في خدمة الجماعة ، كما انها اكثر انسجاماً مع حياتنا الاجتماعية القائمة على التعاون والتكاتف وتسخير كل القوى لخدمة الجماعة .

وهذه الحصانة المحددة المعالم التي تمتع بها الأطباء العرب في ظل الشريعة الاسلامية كانت خير دافع لممارسة مهنة الطب بكل حرية مما دفع الكثيرين الى الابداع دون خوف من عقاب او اضطهاد واوقف الكثيرين من المتطفلين على هذه المهنة من ممارستها . وان ما جاء في كتب الحسبة في الأجزاء الخاصة بالأطباء تظهر الصورة التي كان الأطباء يتعاملون فيها مع مرضاهم ، وحدود مسؤولية الطبيب ، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب معالم القربة في طلب الحسبة لابن الاخوة من جملة ما ذكره (٤) .

« وينبغي للطبيب اذا دخل على المريض ، وسأله عن سبب مرضه وعن ما

(٤) ابن الاخوة – محمد بن احمد القرشي – معالم القربة في احكام الحسبة / تحقيق د . محمد محمود شعبان ، صديق احمد عيسى المطيعي ص ٢٥٥–٢٥٦ .

يجد من الألم ، ثم يرتب قانوناً ( ويعني وصفة ) من الأشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض ، واذا كان من الغد حضر ونظر الى دائه ونظر الى قارورته ( ويعني ادراره ) ، وسأل المريض هل تناقص به المرض ام لا . ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال ، ويكتب له نسخة ويسلمها لاهله ، وفي اليوم الثالث كذلك ، وفي اليوم الرابع كذلك الى ان يبرأ المريض او يموت ، فان برئ من مرضه اخذ الطبيب اجرته وكرامته ، وان مات حضر اولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عايه النسخ التي كتبها لهم الطبيب ، فان رآها على مقتضى الحكمة ، وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب ، قال هذا قضاء بفروغ اجله وان رأى الأمر بخلاف ذلك ، قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب فانه هو الذي قتله بسوء صناعة الطب وتفريطه فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة الى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من اهاه ، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه .

**ثانيا – الرقابة الطبية**

ان الحرية العظيمة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون لم تكن فوضى بل كانت محددة المعالم كما ذكرنا ، وبغية الالتزام بالاطار العام لممارسة مهنة الطب وضعوا اساس الرقابة الطبية على نحو عصري مما نقوم به اليوم فشرعوا لذلك نظاماً حددوا الأركان التي يجب ان يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي « ١– حفظ الصحة الموجودة . ٢– رد الصحة المفقودة بحسب الامكان . ٣– ازالة العلة او تقليلها بحسب الامكان . ٤– تفويت ادنى المصلحتين لتحصيل اعظمهمـــا » (٥) .

(٥) الكيلاني – د. نجيب / ( في رحاب الطب النبوي ) ( بحث قدم للمؤتمر الثالث للسيرة النبوية – الدوحة ١٤٠٠ هـ .)

واناطوا تطبيق ذلك بالمحتسب في ديوان الحسبة (٦) الذي كان اضافة لواجباته الأخرى في مراقبة مرافق الدولة يقوم بمراقبة الصحة العامة والسلوك المهني للأطباء والصيادلة . ويقوم ايضاً باختبارهم ومنحهم اجازة الممارسة بعد اداء القسم الطبي امامه ، وكان له حق حجب الاجازة ممن يجد منه تقصيراً او عجزاً ، وتحميل المقصر مسؤولية فعلته .

وقد تعرضت كتب الحسبة باسهاب الى كل هذه المراقبة ووسائلها وطرقها الى ان تتوغل في اعماق علم الطب وتفاصيله ومجال مراقبتها اجرائياً ومهنياً واخلاقياً ولعلها قد ضبطت في هذه العناصر التالية (٧) .

١- التعريف بالطبيب وتحديد مسماه علمياً .

٢- ان يترأس الأطباء حكيم مشهور بحكمته كثير الحرمة بالغ التجربة بعد ادائه يميناً قاطعة لا كفارة فيها .

٣- تحديد طريقة امتحان معلومات كل صنف من اصناف الأطباء والمواد العلمية التي يجب ان تتوفر في كل من يجاز ويؤذن له بالطبابة .

٤- ما يجب ان يفعله الطبيب عند مباشرته لمريضه .

٥- اللجوء الى تحكيم رئيس الأطباء في طريقة المعالجة عند حدوث ما يدعو لذلك .

٦- تضمين الطبيب ومسألته قضائياً .

٧- على المحتسب ان يأخذ عهد ابقراط على الطبيب المجاز .

فعلى سبيل المثال - جاء في الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين قول ابن الأخوة (٨) فيما يخص الأطباء و وصناعتهم - « وينبغي

(٦) الحسبة - نظام اسلامي شأنه الاشراف على المرافق العامة وتنظيم عقاب المذنبين . وهي وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ( ابن الاخوة ص ٢٣ ) .

(٧) بسيس - محمد طيب / قواعد وآداب - مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الطبي الاسلامي / مؤتمر الطب الاسلامي الأول - الكويت ١٤٠١-١٩٨١ .

(٨) ابن الاخوة ص ٢٥٦ .

للمحتسب ان يأخذ عليهم عهد ابقراط الذي اخذه على سائر الأطباء ، ويحلّفهم على ان يعطوا احداً دواءً مراً ولا يركبوا لهسمعاً،ولا يصنعوا له تمائم عند احد العامة ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وليغضوا من ابصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى،ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار ، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه » .

وكانت مهنة الطب مهنة جليلة لها حرمة يحاسب ممارسوها ان استهانوا بها ، ومن ذلك ما رواه ابن ابي اصيبعة (١٢٦٩ – ١٣٠٣ م) عن احد الأطباء الأجلاء وهو جمال الدين بن ابي الحوافر رئيس الأطباء في مصر زمن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قال « وحدثني بعض اصدقائه قال ، كان يوماً راكباً فرأى في بعض النواحي على مسطبة بياع حمص مسلوق وهو قاعد وقدامه كحال يهودي ، وهو واقف وبيده المكحلة والميل وهو يكحل ذلك البياع فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعة على رأسه ، وشتمه . وعندما مشى معه قال له اذا كنت انت سفلة في نفسك ، اما للصناعة حرمة ، كنت قعدت الى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي بياع حمص،فتاب ان يعود لفعل ذلك الفعل وانصرف»(٩).

### ثالثا – صفات الطبيب

من الحقائق الملفتة في مبادئ اخلاقيات وسلوك الطبيب عند العرب والمسلمين اضافة لتحديد مسؤوليته والرقابة عليه وضعهم الصفات الدقيقة الملزمة واللائقة بالطبيب الماهر الحاذق لأنه كما يقول الانطاكي « الطب اشرف العلوم موضوعه البدن الذي هو اشرف الموجودات ، اذ العلوم لا تشرّف الا بمسيس

(٩) ابن ابي اصيبعة – طبقات الاطباء ج٣ ص ١٩٨ . (اصدار دار الفكر – بيروت ١٩٥٦م) .

الحاجة او شرف الموضوع فما ظنك باجتماعهما » (١٠) وكما يقول رشيدالدين علي بن خليفة ( مولده ٥٧٩ هـ )« الطبيب مدبر لبدن الانسان من حيث هو مقارن نفسه لا من حيث هو بدن انسان بالقول المطلق . وهذا التركيب من اشرف التراكيب ينبغي ان يكون معانيه من اشرف الناس » (١١) .

وقبل ذكر التفصيلات التي ذكرها الأطباء العرب حول صفات الطبيب لابد من تبيان وجهة النظر الاسلامية حول ذلك (١٢) من المعلوم « بأن الاسلام يهدف الى تكوين الذات الاسلامية منذ الطفولة بحيث يمتزج الخلق الاسلامي مع تكوين الفرد وطباعه والطبيب المسلم الذي يحمل امانة الاسلام اولاً وامانة المحافظة على صحة المسلمين ودفع الضرر عنهم ثانياً اولى الناس ان تكون تربيته اسلامية وسلوكه محمدياً والتزامه بخلق الاسلام جزءاً من طبعـــه يمارسه بلا تكلف في جهره وعلانيته .

هذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها كل الفضائل والأخلاقيات التي اوصى بها القرآن والرسول الكريم والتي لا يتسع المجال لذكر نصوصها هنا، ومنها ( الصبر ، الاحسان في العمل ، الكلام الطيب ، الابتسام ، الحياء ، الرحمة ، الرفق ، التواضع ، الصحبة الحسنة ) وهناك بعض الجوانب الأخلاقية المعينة تمس عمل الطبيب اكثر من غيره ويلزمه ان يتذكر دائماً حكم الاسلام فيها من ذلك —

١— غض البصر — يقول القرآن الكريم « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ) ( سورة النور آية ٣٠ ) فلا يجوز ان يكون الترخيص بالاطلاع على عورات الناس عند الضرورة مبرراً للتخلي عن

(١٠) الانطاكي — داود / التذكرة في الطب ص ٧ .
(١١) ابن ابي اصيبعة ج ٣ ص ٤١٥ .
(١٢) للمزيد من الاطلاع حول ذلك يراجع بحث ( نظرة الاسلام للطب ) للدكتور ابراهيم الصياد من ابحاث مؤتمر الطب الاسلامي في الكويت ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

الحياء الواجب على كل مسلم . وعلى الطبيب ألا يطلع إلا على مـــا هـــو ضروري . وان يراعي حرمة الميت كما يراعي حرمة الحي .

٢ــ لا يجوز اخبار المريض بخطورة مرضه ولو كان ميؤوساً من شفائه قال ( ص ) « اذا دخاتم على المريض فنفسوا له في اجله فان ذلك لا يرد شيئاً ويطيّب نفسه » . ( رواه الترمذي وابن ماجة ) .

٣ــ وتطبيقاً للقاعدة الشرعية ( لا ضرر ولا ضرار ) ( رواه ابو داود وابن حنبل) فانالطبيب عليه ان يحفظ المريض المصاب بمرض معد ويدعوه الى الاعتكاف لمنع الضرر عن المسلمين ، فعندما علم الرسول (ص) ان مريضاً بالجذام قادم اليه ليبايعه مع المسلمين ارسل اليه ليرجع قائلاً « ارجع فقد بايعناك » . ( صحيح مسلم ) .

٤ــ الطبيب في مهنته معرّض للاطلاع على اسرار المريض فيجب ان يتخلق بخلق الاسلام في هذا المجال « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » ( صحيح مسلم ) .
واذا استشاره المريض فليلتزم بالأمانة في ابداء المشـــورة وليحافظ على ما استشيرفيه فالرسول يقول « المستشار مؤتمن » .

٥ــ فحص الطبيب للمريضة يجب ان تحضره ممرضة او احد محارم المريضة تطبيقاً لقوله ( ص ) « لا يخلون رجل بامرأة الا ذو محرم » ( صحيح البخارى ) .

٦ــ الا يقدم على ممارسة المهنة الا اذا كان مطمئناً الى كفايته لتنفيذها فالرسول ( ص ) يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ويحترم التخصص المهني تنفيذاً لقول ( ص ) « من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » ( سنن ابي داود ) ويحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر يقول (ص ) « الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها ينشدها » ( جامع الترمذي ) .

٧- توجيه عمله لله حتى يثاب عليه، وتجنّب ما حرم الله في العلاج لقوله ( ص ) « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » وتجنب الممارسات كالاجهاض والوشـــم قال ( ص ) « لعن الله الواشـــمات والمتوشـــمات والواشرات والمتوشرات » .

٨- ان يتعامل مع زملائه الأطباء على اسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح ويحترم الكبير ولا يتعالى على الصغير ويقدم النصح لمن يحتاجه وان يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة يقول ( ص ) « من دل على خير فله مثل اجر فاعله » ( صحيح مسلم ) .

والآن لنتكلم عن صفات الطبيب على ضوء ما جاء عند الأطباء العرب والمسلمين ، عندما وضـــع الدارسون الأقدمون من اطباء ومؤرخين وفقهاء تصوراتهم الواقعية المقبولة لهذا الفرد صاحب المكانة الخاصة المتميزة في المجتمع كان رائدهم الاقتداء بالقيم السمحة والمبادئ السامية التي جاءت بها الشريعة الغراء ، ويتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية .

ولأجل تهيئة من سيقوم بشرف معالجة هذه النفس البشرية التي كرمها الله سبحانه وتعالى بقوله « ولقد كرمنا بني ادم » اجمعوا على وجوب تحلي الطبيب ببعض القواعد الأخلاقية الكريمة والآداب المهنية العالية ، اضافة للكفاءة العلمية ، ويمكن تفصيل كل ذلك بما يلي :

١- الشهادة الطبية واجازة ممارسة المهنة – من الالتزامات المطلوبة اليوم من الطبيب ان يكون كفوءاً في مزاولته مهنته من الوجهة العماية والعلمية واول شارات الكفاءة هـــذه حصوله على الشهادة الطبية حيث بدونها لا يمـــكن ان يحصل على اجازة ممارسة المهنة . والمشرفون على امور الدولة العربية الاسلامية تنبهوا الى ضرورة ذلك وكان الخليفة المقتدر العباسي اول من

سن هذا النظام ، والسبب الذي دعاه الى ايجاد هذا النظام ما رواه ابن ابي اصيبعة على لسان سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء في عصره « لما كان عام ٣١٩ هـ – ٩٣١ م ، اتصل بالمقتدر ان غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر الخليفة ابراهيم ابن محمد بن بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة ، وكتب له رقعة بخطه يطلق له التصرف فيه من الصناعة » (١٣)

**٢– القَسَم الطبي :**

لقد اشترطوا على كل من يريد ممارسة الطب ان يؤدي قَسَماً طبياً يقطع به عهداً على نفسه بتطبيق بنوده .

والقَسَم هذا شمل اغلب بنود وفقرات قسم ابقراط المعروف مع تغيير وتحوير فيه جعله اوفى تقنيناً لآداب المهنة واكثر ملاءمة للمفاهيم الاسلامية الداعية للطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب . ولم يلتزم الجميع بقسم واحد ثابت بل نرى في كتبهم انماطاً مختلفة لها تدور جميعها في نفس المفهوم الأدبي والأخلاقي مشددة على الالتزام بقدسية المهنة وعدم الخروج عن حدودها المرسومة .

فقسم ابقراط جاء ذكره عند ابن ابي اصيبعة كما يلي « قال ابقراط ، اني اقسم بالله رب الحياة والموت ، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج. واقسم بأسقلبيوس واقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً ، واشهدهم جميعاً على اني افي بهذا اليمين وهذا الشرط وارى ان المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي ، واواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي. واما الجنس المتناسل منه فأرى انه مساو لاخوتي ، واعلمهم هذه الصناعة ان

(١٣) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٢٥٤ .

احتاجوا الى تعلمها بغير اجرة ولا شرط واشرك اولادي واولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة ، واما غير هؤلاء فلا افعل به ذلك واقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى ، واما الأشياء التي تضرّ بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا اعطي اذا طلب مني دواء قتالاً ، ولا اشير ايضاً بمثل هذه المشورة ، وكذلك ايضاً لا ارى ان ادني من النسوة فرزجة تسقط الجنين واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا اشق ايضاً عمن في مثانته حجارة ، ولكن اترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل ، وكل المنازل التي ادخلها انما ادخل اليها لمنفعة المرضى ، وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الأشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد ، واما الأشياء التي اعانيها في اوقات علاج المرضى ، او اسمعها او في غير اوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمسك عنها ، وارى ان امثالها لا ينطق به ، فمن اكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له ان يكمل تدبيره وصناعته على افضل الأحوال واجملها وان يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً ، ومن تجاوز ذلك كان بضده » (١٤) .

وسرد مهذب الدين علي بن احمد بن هبل البغدادي ( المتوفى سنة ٦١٠ هـ) قواعد الحكمة التي يستوجب ان يتحلى بها الطبيب والتي يقول بأنه عاهد الله تعالى على ذلك . نوجز فيما يلي بعضاً منها :

١ــ ان يكون تعلمه اياها طالباً بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه .

٢ــ وان يتوفر الطبيب على من يستطع ان يفي بواجب تدبيره منهم وان يمشي الى ضعفائهم ولا يتكبر على فقرائهم ولا يستنكف عن مداواة من انهكته

(١٤) المصدر نفسه ج١ ص ٤٣ .

الأغلال وكثرت به الجراحات والمواد استقذاراً .

٣ـ ان لا يلتمسوا ـ الأطباء ـ من المرضى الا ان يعطوا من غير طلب وان يستعينوا بما يصل من اغنيائهم على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الأدوية .

٤ـ وان يلقوا المرضى بالهشاشة والبشاشة والايناس .

٥ـ وان لا يعزب في ذكر الأدوية عن المشهور . وان يكون من عمل هذه الصناعة متقرباً بنصحه الى الله تعالى لا الى الخلق .

٦ـ ان لا يصفوا الأدوية لاسقاط الأجنة ولا ما يمنع الحبل لقطع النسل الا ان يدعو الى ذلك امر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع .

٧ـ وان لا يعطوا السموم لغرض وسخط ولا يتخذوها ولا يعلموها ولا يتعلموها الا في معرض مداواة من لعله يشفى منه .

٨ـ يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار فأنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من احوال الناس .

٩ـ وان يلزموا العفة وغض الطرف واذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همتهم مصروفة الا الى ما يعود بمصالح المرضى . (١٥)

**٣ـ اتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي :**

اعطى الأطباء العرب والمسلمون مسألة اتقان العمل والمحافظة على مستوى جيد في مزاولة مهنة الطب اهمية قصوى لأن المسألة تتعلق بحياة الانسان وموته. يقول الكندي « ليتق الله تعالى المطبب ، ولا يخاطر فليس عن الأنفس عروض، فكما يجب ان يقال انه كان سبب عافية المريض وبرئه ، وكذلك ان يحذر ان يقال انه كان سبب علته وموته » .

ونصائح الرازي (٢٥١ـ٣١٣ هـ ) لطلاب الطب والأطباء ، شملت الى جانب قراءة الكتب والمطالعة والتتبع تأكيدات على ضرورة تحكيم العقل

(١٥) البغدادي ـ مهذب الدين علي بن هبل / المختارات في الطب ٣ـ٥ .

والاعتماد على التجربة الشخصية لكي تؤتي المعالجة ثمارها فيقول :

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والوقوف على اسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس ، وقراءة الكتب خذل » .

« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعضدته التجربة فليكن امامك » .

« الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون اعمال الماهر الحكيم برأيه خطر » (١٦) .

ويؤكد علي بن العباس ( من ابناء القرن العاشر الميلادي ) نفس المعني عندما يتكلم عن صفات الطبيب الجيد حيث يقول : « ولا ينبغي ان يكون اكثر تشاغله الا بقراءة الكتب والحرص على النظر فيها اعني كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قرأه ...» .

« ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم واحوالهم مع الأستاذين من الحذاق من الأطباء»(٧).

وشدد الرازي على مسألة الخبرة الشخصية في معالجة المرضى محذراً المريض من الأطباء المقلدين والأحداث منبهاً الأطباء على عدم التسرع ومساءلة المريض بشكل تفصيلي عن المرض يقول : « الأطباء الأميون والمقلدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون » (١٨)

ويقول في كتاب الفصول « ومن ابلغ الأشياء فيما يحتاج اليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة ، حسن مساءلة العليل وابلغ من ذلك

(١٦) ابن ابي اصيبعة / ج٢ ص ٣٥١ .
(١٧) علي بن العباس / كامل الصناعة الطبية ج٢ ص ٨-٩ .
(١٨) المصدر السابق ص ٣٥١ .

لزوم الطبيب العليل ، وملاحظة احواله . ومن ذلك انه ليس كل عليل يحسن ان يعبر عن نفسه .. » (١٩) ومن وصايا رشيد الدين علي بن خليفة « الأمراض لها اعمار ، والعلاج يحتاج الى مساعدة الأقدار ، واكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما فيه اليقين . وجزآها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ونتيجتها حفظ الصحة اذا كانت موجودة وردها اذا كانت مفقودة وفيها يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر ، ويتميز الفاعل عن الجاهل ، والمجد في الطب عن المتكاسل ، والعمال بمقتضى القياس والتجربة ، عن المحتال على اقتناء المال وعلو المرتبة » ( ٢٠ ) .

ومن اقوال عبدالله الاشبيلي الحريري ( ٥٩١ –٦٤٦ هـ ) في صفات الكحال « وان يكون قد انفق زمانه في تحصيل صناعته وخدم المشائخ وعمل بين ايديهم فان هذه الصناعة تحتاج الى مباشرة وتطبيق على قانون طبي » .

« وينبغي ان تطاوعه يده على الحذق في الأعمال الدقيقة ولقط السبل ، وكشط الظفرة ، وقدح الماء ... الى غير ذلك مما يقع فيه الخطأ بسبب عدم الحذق والخوف ، لذلك ينبغي ان يكون ثبت الجنان مشفقاً ، ولا تكون شفقته لضعف قلبه » (٢١) ومن الأمثلة على ضرورة بذل الجهد في الدرس والتحصيل وتحمل المشقة دونما خجل او غرور في سبيل الحصول على الكفاءة العلمية قول عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧ – ٦٣٩ هـ ) « ومن لم يعرق جبينه الى ابواب العلماء لم يعرق في الفضيلة ، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس ... ومن لم يحتمل الم التعليم لم يذق لذة العلم ، ومن لم يكدح لم يفلح » « وينبغي ان تكثر ايهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها ، وتعرض خواطرك

(١٩) الرازي – ابو بكر محمد بن زكريا / كتاب المرشد او الفصول – تحقيق الدكتور البير زكي اسكندر ص ١٢١ .
(٢٠) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤١٣ .
(٢١) المصدر نفسه ج٣ ص ٤٢ .

على العلماء وعلى تصانيفهم وتثبت ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبدال الزلل » (٢٢) .

ومن الوصايا القيمة لمهذب الدين ابي الحسن علي بن احمد بن هبل البغدادي ( المتوفى سنة ٦١٠ هـ ) قوله في مقدمة كتابه المختارات في الطب :

« ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله ان ينظر فيما اذاانفق زمانه الماضي ان كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء من اهلها ، وطول ملازمتهم ، والقراءة عليهم ، والعلاج بين ايديهم والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم ، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق الأطباء ، وكثرة نظره الى معالجة الأستاذ ، فيشار اليه ويقول عليه – وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته ، وان همته اذا خلافي بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة ، وانه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب التي تستغرق الزمان بالتضييع ، والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي ان يوثق اليه ولا يعول في هذه الصناعة عليه » .

وفي وصـــايا ابي عبدالله محمـــد بن الحاج العبـــدري ( المتوفى سنة ٧٣٧ هـ – ١٣٣٦ م ) في كتابه المدخل نجد لوناً من الوان آداب الطبابة التي تحتوي على حيوية وحركة نشيطة تكاد تربط حاضرنا بماضينا وتلامس اوضاعنا وكأنها وضعت ليومنا وكأن ما يتحدث عنه قد شاهده في حياتنا المعاصرة يقول :

«فيتعين على الطبيب ان يسمع كلام المريض الى آخره فلعل آخره ينقض أوّله او بعضه ولربما يغلط المريض في ذكر حاله او يعجز عن التعبير عنه فاذا تأنى الطبيب واعاد عليه السؤال برفق امن الغلط فان الغلط في هذا خطر

(٢٢) البغدادي – عبداللطيف / مقالتان في الحواس / تحقيق د. بول غليونجي ، د. محمد عبدة ص ١٦٩ . مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤ .

لأن اصل الطب والمقصود منه معرفة المرض فاذا عرف سلمت مداواته غالباً . ويتعين على الطبيب ان كان غير عارف بدوائه ان لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من اضاعة المال .

وينبغي للطبيب ان لا يقتصر على سؤال المريض وحده بل يسأل من خدم المريض اذ ربما يعرف عن المريض اكثر مما يعرفه هو . وينبغي للطبيب ان يعرف حال المريض في حال صحته في مزاجه ومرباه واقليمه وما اعتاده من الأطعمة والأدوية سواء بالسؤال من المريض او ممن يلوذ به واذا تعذر عليه ذلك فليسأل عن والدي المريض ويطبه بمقتضى حالهما » (٢٣) .

واخيراً وليس اخراً نذكر هذا النص الحي النابض بالحياة والقوة والذي يبين المرونة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون وعدم الحياء من الاعتراف بعدم معرفتهم ان كانوا يجهلون امراً « قال ابو الثناء الحابي شكوت الى ابن النفيس عقالاً في يدي فقال انا والله بي عقال فقلت له فبأي شيء اداويه ؟ فقال والله لا ادري بأي شيء اداويه » (٢٤) .

**٤ـ حسن الخلق والهيئة :**

لقد تنبه فلاسفة الطب منذ زمن ابقراط على ان العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة انسانية نفسية الى جانب كونها مسألة علمية وعملية ، لذلك نجدهم يؤكدون على ضرورة اتصاف الطبيب بحسن الخلق والشكل والهيئة ، لما لذلك كله من موقع حسن في نفس المريض واثر طيب في العلاج والشفاء .

والأطباء العرب والمسلمون بلغوا في ذلك شوطاً بعيداً ، نذكر فيما يلي بعضاً مما قالوه :

يقول علي بن العباس « ينبغي لمن أراد ان يكون طبيباً فاضلاً ، ان يتخاق

(٢٣) ( بسيس – محمد الطيب / قواعد وآداب مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الاسلامي – مؤتمر الطب الاسلامي الاول – الكويت ١٤٠١/١٩٨١ .

(٢٤) المفتي – د. يونس / مبادئ الأخلاق الطبية في الاسلام – مؤتمر الطب الاسلامي الأول – الكويت ١٤٠١ / ١٩٨١ .

بالأخلاق الفاضلة وان لا يتهاون فيها ، فانه ان فعل ذلك كانت مداواته للمرض مداواة صواب » (٢٥) .

من بين الشروط التي ذكرها ابن رضوان في الطبيب « ان يكون تام الخلقة صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرواية عاقلاً ذكوراً ، خير الطبع » . «ان يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف اليدين والثوب » .

«ان يكون سليم القلب عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله من امور النساء والأحوال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن ان يتعرض الى شيء منها » (٢٦) .

وقال الحكيم ابو الخير في كتابه امتحان الأطباء « انه يجب ان يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء متناسبة في مقاديرها حسنة في شكلها قوية في وضعها ، معتدل المزاج ... يخالط نظره دائماً سرور وفرح وفيه بشاشة وطلاقة » « فأما في نفسه فأن يكون ذكياً ذكوراً ، جيد التصوير قوي الحدس والتخمين صبوراً على التعب والنصب ، في درك الحق من الأمور ، كتوماً متحملاً ما يسمعه من المرضى » (٢٧) .

ومن ذلك قول الانطاكي( من ابناء القرن العاشر الميلادي )« ينبغي لهذه الصناعة وكشف دقائقها . . وينبعي تنزيهه عن الأراذل والضن به على ساقطي الهمة لئلا تدركهم الرذالة عند الدعوة الى واقع في التلف فيمتنعون او فقير عاجز فيكلفونه ما ليس في قدرته » .

« ويجب اختيار الطبيب حسن الهيئة ، كامل الخلقة ، صحيح البدن ،

---

(٢٥) علي بن العباس / كامل الصناعة الطبية ص ٨ .

(٢٦) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٧٠ .

(٢٧) ابن جاجل = ابو داود سليمان / طبقات الحكماء /تحقيق فؤاد السيد ص ١٥٨ ، مطبعة المعهد للعلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥

نظيف الثياب ، طيب الرائحة ، يسر من نظر اليه وتقبل النفس على تناول الدواء من بين يديه ، وان يتقن بقلبه العاوم التي تتوقف الإصابة في العلاج عليها ، وان يكون متيناً في دينه متمسكاً بشريعته دائراً معها حيث دارت ، واقفاً ، عند حدود الله تعالى ورسوله ، نسبته الى الناس بالسواء ، خلي القلب من الهوى لا يقبل الارتشاء ولا يفعل حيث يشاء ليؤمن معه الخطأ وتستريح اليه النفوس من العنا » (٢٨) .

ويتكلم الاشبيلي عن الصفات التي يجب ان يتحلى بها جراح العين وهي لا تختلف عما يؤكده اطباء اليوم ، يقول « وان يكون ذكي الحواس ، فان يسيراً من ضياء الحس خير كثير من درس الحكمة .

ولا يؤلم مريضاً بما فيه صلاحه ، بل ينبغي له ان يجتهد في حفظ الصحة وردها بألطف طريق يمكنه ، ويستحب ان يطيب معانيه ( اي عزيمته ) وان تكون عينه سليمة من الامراض .

وان يكون ... لا يستنكف عن مداواة من كثرت في عينه الامراض والاوساخ . . . والقرح والدموع استقذاراً منه وأنفة .

وان ينوي الخير للناس كافة ، ولا يقصد اذى احد من المخلوقين ويرفق بالضعيفين والمساكين » (٢٩ ) .

وأوصوا الطبيب والعالم بعدم اقتناص المال ، لان المال هو يجري نحوه متى ما أدى واجبه على الوجه الاكمل .

يقول الرازي في ذلك ( ينبغي ان تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلا على الدنيا كلياً ولا معرضاً عن الآخرة كلية فيكون بين الرغبة والرهبة )(٣٠).

(٢٨) الانطاكي – داود / التذكرة في الطب ص ٨ .

(٢٩) الاشبيلي – عبدالله بن قاسم الحريري / نهاية الافكار ونزهة الابصار/ تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ص٤٢–٤٣. وزارة الثقافة العراقية ١٩٦٩ .

(٣٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٣٥١ .

ويقول عبداللطيف البغدادي « اني لا أقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم، بل هو الذي يعرض عنها . . . ( للعلم عبقاً وعرفاً ينادي عن أصحابه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته » (٣١) .

ويقول العبدى « ان يكون الطبيب خالص النية في عمله لله تعالى حتى يكون عمله من اعظم العبادات لا يريد عليه عوضاً من الدنيا ، وان قصده امتثال السنة المطهرة في التطبيب وكشف الكرب عن اخوانه المسلمين ومشاركتهم في مصائبهم والنوازل التي تنزل بهم كما ينوى الشفقة عليهم » (٣٢ ) .

وجاء في وصية رشيد الدين علي بن خليفة بعض النصائح التي تبين العلاقة بين التلميذ والأستاذ ، قال « احترم المشائخ ولو سكتوا عن جواب سؤالك فلعل ذلك لبعد العهد وكلال القوى ، أو لأنك سألت عما لا يعنيك ، او معرفتهم بعجز فهمك عن الجواب » .

« اذا تطببت فاتق الله واجتهد ان تعمل بحسب ما تعلمه علماً يقيناً ، فإن لم تجد فاجتهد ان تقرب منه » .

« اذا وصلت الى رتبة المعلمين فلا تمنع مستحقاً وهو العاقل الذكي الخير الحكيم النفس ، وامنع سواه » (٣٣) .

نعني بالسر الطبي هنا ، كتمان ما اطلع عليه من احوال مريضه والتي لا يجوز افشاؤها . وهذا ما كان يطالب به الطبيب منذ الوهلة الأولى من حياته العلمية ، عندما يؤدي القسم الطبي ويعطي العهد الذي جاء في أحد بنوده كما ذكرنا « سوف احتفظ بكل ما اراه او اسمعه من اسرار الناس التي ينبغي

(٣١) البغدادي ــ عبداللطيف / مقالتان في الحواس ص ١٧٠

(٣٢) بسيس محمد الطيب / قواعد آداب مزاولة مهنة الطب / مؤتمر الطب الاسلامي الاول الكويت ١٤٠١/١٩٨١ .

(٣٣) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤١٢ .

أن لا اكشف ما لا يجب ذكره مما اتصل معرفتي اليه في حدود مهنتي او خارجها أو في مخالطتي اليومية مع الناس بل اكتمه سراً » .

ويقول الرازي في ذلك « ينبغي للطبيب ان يكون رفيقاً بالناس حافظاً لغيبهم كتوماً لأسرارهم ... فانه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن اخص الناس به مثل ابيه وامه وولده ، وانما يكتمونه خواصهم ويفشونه الى الطبيب ضرورة .. » . وبقي الأطباء العرب والمسلمون ملتزمين بهذا الشرط مع مرضاهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم ، وكمثال لعدم افشاء اسرار المرضى حتى بعد وفاتهم . قول البلدي ( كان حياً ٣٦٨ هـ ) عند التحدث عن مرضى الصرع حيث قال « رأينا من عرض لهم الصرع ممن تجاوز الأربعين والخمسين فمنهم من برئ براءاً كاملاً ومنهم من كان من كان لا يعرض له ذلك الا في زمان طويل وعلى غير نظام في حفظ الأدوار ممن لو ذكرتهم لعرفوا لكن اكتفى عن ذكر اسمائهم رحمهم الله تعالى » (٣٤) .

وعن الصراحة الطبية نقول بأن اخلاقية المهنة الطبية في الحضارة الاسلامية تدعو الى عدم التصريح ، كما تحبب اظهار التفاؤل امام المريض فيما يسره . روى ابن ماجة قول الرسول ( ص) ، اذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فان ذلك لا يغير شيئاً وهو تطمين لنفس المريض . كما ان في الأقوال المأثورة عن النبي الكريم ، لكل داء دواء ، ما انزل الله داء الا انزل له الشفاء... مما يقوي نفس المريض ويحثه على طلب الدواء والتفتيش عنه فيعلق قلبه بروح الرجاء ويتفاءل بالخير وقد يجده ، والفأل كلمات يسمعها العليل فتقوى بها عزائمه ، وكان من بين الكلمات التي جاءت في قسم الأطباء العرب دعوتهم

(٣٤) البلدي – احمد بن محمد / تدبير الحبالى والاطفال والصبيان / تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ص ٢٤٨ .

الى اجتناب ما يغم المريض وقعه من الكلام » (٣٥) .

وفي ذلك ايضاً يقول مهذب الدين البغدادي « ولا يؤيسوا المرضى في امراضهم المعروفة الخطر من العافية فيتعجلوا منهم سقوط القوة وضعف الرجاء الذي وراءه من جانب الله تعالى علم ما لم يعلموه فليس في طاقة البشر الاطلاع على جميع اسرار الخليقة ومعرفة نظام العالم فقد طالما خرج الطبيب من عند المريض وهو مأيوس منه فعاد اليه وقد فتح الله له ابواباً من الصحة وخرج من عند آخر ورجاؤه فيه اوثق من وثوقه بقوة بدنه واستقامة صحته ثم قضى عليه » (٣٦) .

وهناك من اوصى بوجوب التصريح والتنبيه في الحالات الميئوس منها ولكن بأسلوب غير مباشر وطريقة لبقة فمن ذلك قول السبكي « من حقه – ويقصد الطبيب – بذل النصح ، والرفق بالمريض واذا رأى علامات الموت لم يكره لمن ينبه الوصية بلطف من القول » .

**رابعاً – حقوق الطبيب –**

تمتع الأطباء في الدولة العربية الاسلامية بحقوقهم كاملة ، فنالوا احترام الجميع من خلفاء ووزراء وعامة الناس ، وبلغوا حتى غير المسلمين منهم مراتب عالية ومراكز حساسة في الدولة . كل ذلك لأنهم قدروهم حق قدرهم ، يقول ابن ابي اصيبعة عن جده حينما اراد تعليم والده وعمه مهنة الطب « وقصد الى تعليمهما صناعة الطب لمعرفته بشرفها ، وكثرة احتياج الناس اليها ، وان صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلاً حظياً في الدنياوله الدرجة العلياء في الآخرة » (٣٧) .

(٣٥) الشطي – الدكتور احمد شوكت / اخلاقيات الطب في التراث الاسلامي وواقعه اليوم/ بحث قدم للمؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقد في حلب – نيسان ١٩٧٧ .

(٣٦) البغدادي – مهذب الدين علي بن هبل / المختارات في الطب ج١ ص ٥ .

(٣٧) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤٠٢ .

ويمكن تقسيم حقوق الأطباء الى :

**١- تكريم الأطباء -**

لقد اوصى الرسول الكريم (ص) في بداية الدولة العربية الاسلامية بالتطبب عند الحارث بن كلدة . وكرم خلفاء بني امية عدداً من الأطباء امثال ابن اثال النصراني طبيب معاوية وابي بكر الدمشقي وابنه الحكم وابن ماسرجويه السرياني ايام عمر بن عبد العزيز وتبعهم في ذلك خلفاء بني العباس حيث اعطوا مكـانة خاصة للأطباء ، على سـبيل المثال عائلة بختيشوع من الأطباء النصارى الذين فازوا بكرم العديد منهم . ومن بين من اشتهر وكرم من غير المسلمين ايضاً في عهدهم حنين بن اسحاق ( المولود عام ١٩٤ هـ ) الذي كان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب العربية وابنه ، ويوحنا بن ماسويه ( المولود عام ١٦١ هـ ) وغيرهم ، وبلغ البعض منهم درجة من التكريم بحيث كان يوقع عن الخليفة ، فمثلاً ايام المعتضد بالله «كانت التوقيعات تخرج بخط داود بن ديلم لمحله منه ومكانته(٣٨).

هذا بالنسبة لغير المسلمين من الأطباء ، اما المسلمون منهم فقد بلغ بعضهم من التكريم ما جعل الخلفاء ينيطون بهم اعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب الطب ، فولي بعضهم الوزارة مثل الرئيس ابن سينا ( ولد عام ٣٧١ هـ)، والحفيد ابي بكر بن زهر ( ١٠٩٤ -١١٦٢ م )، وفخر الدين الساعاتي والصاحب نجم الدين بن اللبدي ( ولد عام ٦٠٧ هـ ) ، ومهذب الدين يوسف بن ابي سعيد والصاحب امين الدولة من ابناء القرن السابع الهجري .

ومنهم من تولى القضاء مثل القاضي الفيلسوف ابن رشد الذي تولى القضاء في اشبيلية وقرطبة ، والقاضي ابن المرخم بن سعد الذي اصبح قاضي القضاة ببغداد ايام المقتفي ،وافضل الدين ابي عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر (٣٩)

(٣٨) المصدر نفسه ج٣ ص ١٣٥ ص ١٤٣ .
(٣٩) المصدر نفسه ص ١٢٣ ، ١٣٠ .

ومن الأمثلة على تقدير الأطباء واجلالهم ، ان الخليفة المعتضد بالله « لما تقلد الخلافة اقطع ثابتاً بن قرة ضياعاً جليلة وكان يجلس بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام ، ويكون بدر الأمير قائماً والوزير ، وهو جالس بين يدي الخليفة » ويروى ايضاً « ان ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان ... وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يمشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة ، ففزع ثابت ... وقال له يا ابا الحسن سهوت ، ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون . فان العلماء يَعلُون ولا يُعلَوْن » (٤٠) .

وجاء في كتاب صبح الاعشى « وكانت اعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء ، فكانت القاب ارباب الصناعات الرئيسية ، كرئاسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس او امرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ، ولا يكون الا واحداً وفي المرتبة الاولى مرتبة المجلس العالي :

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص ، وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخلافة كل يوم ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر ، دون اربعة اطباء او ثلاثة فيخرج . . الخدم . . . فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص . . . ولكل منهم الجاري والراتب على قدره » (٤١) .

ومن الامثلة التي تبين اعتزاز الأطبـــاء بشخصيتهم وكرامتهم وترفعهم عن الأمراء ، ما رواه ابن جلجل في طبقاته عن ابن الجزار القيرواني ( ٢٨٥—٣٧٧ هـ)

(٤٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٩٤ .

(٤١) عيسى – الدكتور احمد / تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٤ ، طبع جمعية التمدن الاسلامي – دمشق ١٩٢٧ .

« ولم يركب الى احد من رجال افريقية ولا الى سلطانها ، الا الى ابي طالب عم ( الخليفة المعز لدين الله ) ، كان له صديقاً قديماً » وقال « حدثني من اثق به قال كنت عنده غداة في دهليزه وقد غص بالناس ، اذ أقبل ابن اخي النعمان القاضي ، وكان حدثاً جايلاً بافريقية فتخلف القاضي اذا منعه مانع عن الحكم ، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه ، الا مجلس ابي جعفر ، فخرج ابو جعفر ، فقام له ابن اخي القاضي على قدم ، فما اقعده ولا انزله » قال الذي حدثني فكنت عنده صحوة نهار ، اذ أقبل رسول النعمان القاضي ، بكتاب يشكوه فيه على ما تولى من علاج ابنته ، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال ، فقرأ الكتاب وجاوب شاكراً ، ولم يقبض المال ولا الكسوة . قال الذي حدثني فقلت له ابا جعفر رزق ساقه الله اليك ، ترده ؟ قال لي والله لا كان لأحد من دولة معد قبلي نعمة » (٤٢) .

**اجور الأطباء :**

تقاضى الأطباء اجوراً عن معالجة المرضى منذ القديم ففي حضارة وادى الرافدين ومصر القديمة كان الطبيب يستوفي اجوراً تناسب مكانته العلمية والعملية ، ومكانة المريض الاجتماعية . فعلى سبيل المثال نجد نصوصاً في ( شريعة حمورابي ) تحدد اجور الطبيب الجراح حيث كان يتقاضى خمسة عشر شقلاً فضة من المريض من طبقة الأحرار ، وعشرة شقلات من الطبقة المتوسطة وشقلين من سيد العبد عند معالجة العبيد .

وكان ابقراط في الحضارة الاغريقية يأخذ اجوراً عينية من الأغنياء والمرفهين كالأساور والحلي الذهبية والفضية ، او الهدايا الثمينة في الوقت الذي يقوم بعلاج الفقراء بدون اجر .

وفي الحضارة العربية الإسلامية كان الأطباء يتقاضون اجوراً عالية من الخلفاء والأمراء والقادة والاغنياء بينما كانوا يعالجون الفقراء بأجور بسيطة او بالمجان ،

(٤٢) ابن جلجل – ابو داود / طبقات الاطباء والحكماء ص ٨٩ .

وكتب التاريخ تروي لنا مبلغ ماوصله بعض الأطباء من حسن ورغد العيش وكمثال لدرجة مباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات . من ذلك :

ان ابا بكر يوحنا بن ماسويه اكتسب من صناعة الطب الف درهم وجمع جبريل بن بختيشوع مالاً كثيراً ، فقد بلغ ايراده السنوي ملخصاً عما رواه ابن ابي اصيبعة ( ٤٩٠٠٠٠٠ ) درهم ومجموع ما حصل عليه خلا خدمته لهارون الرشيد مدة ٢٣ سنة والبرامكة مدة ١٣ سنة (٨٨٧٠٠٠٠٠) درهم (٤٣) .

وان رسوم ابن التلميذ في بغداد سنوياً كانت تزيد على عشرين الف دينار وبلغت تركة ابن الجزار بعد وفاته اربعة وعشرين الف دينار . وكان الاطباء يتلقون هبات من الخلفاء والأمراء ووجهاء الدولة اضافة لأجورهم المقررة فمثلاً عندما اراد الطبيب ابو الفرج النصراني تزويج بناته ، أكرمه صلاح الدين بثلاثين ألف درهم لتجهيزهن ، ولما بلغ الطبيب ابن مطران تأثر من ذلك ، وعندما سمع صلاح الدين بتأثره امر له هو الآخر بمثل ذلك المبلغ سواء بسواء (٤٤) وان ما وصل مهذب الدين بن الدخوار ( المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ) من معالجة الملك العادل بالشرق من معالجته من مرض صعب سبعة آلاف دينار مصرية وما وصله من معالجة ابنه الملك الكامل صاحب الديار المصرية كان من الذهب اثني عشر الف دينار واربع عشرة بغلة بأطواق ذهب ، والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها (٤٥) .

وان الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر حصل له في يوم واحد من الخلفاء في بعض معالجاته لاحدهم ثلاثون الف دينار وانه لما طهر ولدي الحافظ لدين الله حصل له في ذلك الوقت من المال نحو خمسين الف دينار واكثر من ذلك ، سوى

(٤٣) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٢٣ . . .
(٤٤) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٨٨ .
(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٩٤ .

ما كان في المجلس من اواني الذهب والفضة فانها وهبت جميعها له » (٤٦) .

وفي العمل الحرفي ممارسة مهنة الطب لم يكن هناك تحديد لأجرة فحص المريض ومعالجته بالمعنى الذي نفهمهُ اليوم ، بل كان الطبيب يتقاضى الأجور حسب حالة المريض المالية كما ذكرنا ، ويذكر لنا ابن جلجل عن الطبيب اسحق بن عمران أنه لفترة من حياته كان يفحص المرضى بأجر محدد فيقول عنه إنه عندما أمر زيادة الله بقطع رزقه أي راتبه « فلما قطع عنه الرزق خرج الى موضع فسيح من رحاب القيروان ، ووضع هناك كرسياً ودواة وقراطيس فكان يكتب الصفات كل يوم بدينار » (٤٧) .

وكان أغلب الأطباء العرب والمسلمون – من أمثال الرازي وابن سينا وابن الجزار وغيرهم – يقومون بمعالجة الفقراء مجاناً أو بأجر يسير في الوقت الذي لايتساهلون فيه مع المتمكنين والأغنياء ، ومن الأمثلة على ذلك مارواه ابن جلجل عن رجل من أهل خراسان ادعى الفقر فرضي الطبيب ابن وصيف أن يعالجه بأجر قليل ، فلما ثبت كذب ادعائه للفقر حيث وقعت يده على عضده فوجد نطاقاً صغيراً فيه دنانير ، رفض معالجته (٤٨) .

وكان البعض منهم لايتقاضى أية أجرة من الجميع ، من أولئ ك الذين كانوا يطبون الناس من دون أجرة ، أبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري قاضي اشبيلية ، وكمال الدين الحمصي الذي كان يكره التكسب بصناعة التردد الى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين زنكي ويعالج المرضى فيه احتساباً (٤٩) .

ومن الأمثلة التي تشير الى ترفع الأطباء العرب والمسلمين عن الطمع

(٤٦) المصدر نفسه ص ١٨١ .
(٤٧) ابن جلجل / طبقات الاطباء والحكماء ص ٨٥ .
(٤٨) المصدر نفسه ص ٨١ .
(٤٩) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٣٢٩ .

مارواه البيهقي عن الحكيم ابي الفتح عبدالرحمن الخازن « وكان نقي الجيب عن الأطماع الخسيسة ، بعث السلطان الأعظم سنجر اليه الف دينار على يد الأمير الامام شافع الطبيب فرده وقال لااحتاج اليها ، وبقي لي عشرة دنانير ، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير وليس معي في تلك الدار الاسنور » « وبعثت اليه زوجة الأمير لامي كافور بك الكبير الف دنار فردها أيضاً » (٥٠) .

وكان بعضهم الاخر يستنكف أن يأخذ الأجور بل يقوم بذلك خادمه ، من أولئك ابن الجزار القيرواني الذي كان ثرياً موسراً يكتظ المتداوون في محل عيادته ، وبعد فحصهم يحيلهم لغلامه رشيق الذي يوزع الأدوية والأشربة ويتقاضى الأجور لأن سيده ينزه من أن يأخذ من أحد ثمناً علماً بأن ذلك كان شأنه مع وجوه الدولة وعامة الناس (٥١) .

أما أجور الأطباء في البيمارستانات ، فكانت تشبه الى حد ما طريقة عمل اطباء اليوم حيث خصصوا للأطباء رواتب شهرية تتفاوت حسب شهرة الطبيب وعلمه وكفاءته أضافة لأجور أخرى لقاء قيامه بأعمال اضافية كالتدريس أو الترجمة والأمثلة التالية تبين المفهوم العام لمسألة الرواتب في البيمارستانات .

« وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال الف درهم في كل سنة » (٥٢) .

« وكان لماسويه جامكية من الفضل في كل شهر ستمائة درهم وعلوف دابته ، ثم تزيد الى الفي درهم ومعونة في السنة عشرة الآف درهم وعلوفة ونزل . وممن كان يأخذ رزقين جبرائل بن عبدالله بن بختيشوع ، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية . وكان لعز الدين بن السويدي جامكية في اربع جبهات ، في

(٥٠) البيهقي – ظهير الدين / تاريخ حكماء الاسلام ص ١٦٢ . مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦ .
(٥١) ابن جلجل ص ٨٩ .
(٥٢) عيسى – د. احمد / تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٩ بالاصل نقلا عن القفطي ص ١٥٢ .

البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد في دمشق وللتردد على قلعة دمشق وتدريسه في مدرسة الدخوارية (٥٣) .

« وكان من اطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم وكان في جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة ارزاق رزقاً للنقل من السرياني الى العربي ، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين » (٥٤) « وكان الحكيم موفق الدين عبدالعزيز يأخذ في كل شهر مائة دينار ورواتب أخرى من الملك العادل لقاء عماله في البيمارستان ومعالجة الملك ، ولما توفي عينَ بدلهُ مهذب الدين الدخوار بنفس الرواتب المقررة » (٥٥) .

وعن أبيه يقول ابن أبي اصيبعة « فأقام بدمشق وصار يتردد الى القلعة لخدمة الدور السلطانية لكل من ملك دمشق من أولاد العادل وغيرهم ، وكلهم يرون له ويعتمدون عليه في المداواة وله الجامكية والجراية والأنعام الكثيرة ويتردد أيضاً الى بيمارستان نور الدين الكبير وله الجامكية والجراية » (٥٦) .

ويقول أيضاً « مهذب الدين بن الحاجب عندما توجه الى دمشق أكرمه صلاح الدين والفاضل وجماعة الرؤساء وأجري له ثلاثون ديناراً » (٥٧) .

وكمثال لرعاية الدولة للأطباء وصرف مايشبه الراتب التقاعدي لهم ، ما حصل لأبي البيان بن المدور فيما رواه ابن أبي اصيبعة « وعمر الشيخ ابو البيان بن المدور وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف ، من كثرة الحركة والتردد الى الخدمة فأطلق له الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله في كل شهر اربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل اليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلف

(٥٣) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٢١٦ .
(٥٤) ابن القفطي ص ٢٥٠ .
(٥٥) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٣٩١ .
(٥٦) المصدر نفسه ص ٤٠٦ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٩٨ .

خدمة . وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل اليه نحو عشرين سنة » (٥٨) .
وقبل ان نختم البحث نقول :

ان الأطباء في كل زمان ومكان كبقية بني البشر ، قد يظهر فيهم أحياناً بعض المتطفلين والمشعوذين أو ذوي النفوس المريضة فيسيء هؤلاء للمهنة بسلوكهم الشائن ، والحضارة العربية الأسلامية في تاريخها الطويل لم تخل من البعض من غير الملتزمين بآداب مهنة الطب ، إلاّ ان هؤلاء لم ينجوا من تقريع ولوم الملتزمين منهم بتلك الآداب ، فكان الرازي مثلاً من أوائل الذين اندفعوا بشدة في احتقار الاطباء الدين يتخذون مهنتهم طريقاً لأبتزاز اموال الناس بوسيلة غير شريفة ، كما أنه حذر الناس من الدجالين والمشعوذين من الذين يتظاهرون بصنعة الطب بغية اكتساب المال وهم لايعرفون من الطب شيئاً فيسيئون الى المريض اساءة بالغة بدل شفائه .

وا نتقد ابن الكتبي ( من اطباء بدايات عصر تخلف الحضارة العربية ) في كتابه مالا يسمع الطبيب جهله ، بعض اطباء زمانه الجهلاء الذين دأبهم ارتداء الملابس الفاخرة وملازمة الأمراء والنبلاء وحضور الولائم وهم غافلون عن قوانين الصنعة ويجهلون احكامها ولا يتابعون تطورها بالدرس والملاحظة والالتزام باعمالهم المهنية حتى افسدوا شرائعها واستهانوا بقيمها مما حط من كرامة الصناعة وقدرها في عيون الناس .

وكلمة أخيرة لابد من ذكرها وهي « ان قضية السلوك المهني لاتحل بقسم ولا تستوفى بدراسة مقرر علمي في آداب ممارسة الطب ولا تحكمها قواعد قانونية تقررها نقابة طبية او دستور وضعي ، ان الرعاية بالمريض تحمل التزامات اخلاقية والطبيب في ممارسته اليومية ستواجهه كثير من المواقف تستلزم

(٥٨) المصدر نفسه ص ١٩١ .

استفتاء الضمير . وهنا ستتأثر قرارته بمدى التزامه تجاه ربه » (٥٩) .

وانطلاقاً من ذلك فاننا نجد وعلى مدى قرون عديدة بأن الأطباء العرب والمسلمين منهم حقاً كان اسلامهم يلزمهم بمنهاج متكامل يربط كل فرد منهم لا بالمجتمع فحسب بل بالله الذي يعبدون علماً بأن التزامهم بهذا المنهج لم يأت قسراً وانما جاء عن طواعية واختيار في ظاهرهم وفي باطنهم ومن غير خشية من عقاب المجتمع او القانون بل رغبة في طاعة خالقهم وطلباً لتوبته الغالية التي جعلوا حياتهم كلها وسيلة لها وطريقاً اليها .

(٥٩) بحث نظرة الاسلام للطب / الدكتور ابراهيم الصياد / من ابحاث مؤتمر الطب الاول – الكويت ١٤٠١هـ-١٩٨١م .